مصر منذ اربعمائة سنة

(عثرت بعد البحث والتنقيب الدقيق على رحلات قديمة لبعض السياح الافرنج الذين زاروا مصر في القرون المتوسطة وكتبوا عنها الاسفار المطولة مما لم يرد ذكر كثير من اخباره في كتب مؤرخي العرب . فآثرت نشر خلاصة هذه الرحلات في هذه المقالة الاولى . ثم اتبعها بما كتب السياح عن مصر واحكامها وسلاطينها وغرائبها وتجارتها وما جرى فيها من الحوادث والاتفاقات والمعاهدات بين سلاطين مصر وملوك الافرنج وعن تنقلاتهم وسفراتهم ومعاهداتهم السياسية والتجارية مما لم يُنشر في الكتب العربية)

***

توترت العلاقات السلمية بين مصر وبلاد الافرنج منذ القرن الثالث عشر بعد ان تغلب توران شاه على الملك لويس التاسع في المنصورة واخذه اسيراً ثم قام خلفاؤه من بعده السلطان بيبرس والملك المنصور قلاوون والملك الاشرف خليل سنة ١٢٩٠ وطردوا الصليبيين من كل البلاد السورية حتى ان الملك الناصر محمداً طرد كل التجار الافرنج وقناصلهم من سورية ومصر سنة ١٣٤٠ . فانقطعت العلائق بين مصر واوربا انقطاعاً تاماً ولم يعد احد من الافرنج يجرأ على المجيء الى مصر للتجارة او للسفر لزيارة الاماكن المقدسة فيها . الاَّ انهُ من حين الى آخر كان يتسلل بعض الافرنج خفية طمعاً في الاتجار او رغبة في السياحة والاستطلاع

وقد دخل الى مصر من السياح الافرنج بين اواسط القرن الرابع عشر والقرن السابع عشر نحو تسعين سائحاً واكثرهم فرنسويون وايطاليون وبنادقة واسبانيون وجنويون وجرمان وكلهم كتبوا رحلاتهم في اسفار مطولة او موجزة محفوظة في مكاتب اوربا وذكروا فيها عن احوال مصر واحكامها وملوكها وتجارتها وعوائد اهلها وعن حوادث خصوصية جرت فيها في هذه القرون المتأخرة مما لم يكتبهُ احد من مؤرخي العرب . وسنأتي هنا على اهم السياحات واشهرها

(١) اشهر الرحلات القديمة

في اواسط القرن الرابع عشر حضر الى مصر ثلاثة سياح ورحلاتهم لها المنزلة الاولى عند المؤرخين اولها رحلة سائح الماني يدعى اوتو نيانهوسن مشهور باسم غليوم بلودانسل من البلاء زار جبل سيناء ومصر واقام فيها بضعة اشهر وذكر آثارها ومتاجرها واحكامها

وفنادقها (١) وقال ان اكثر هذه الفنادق من السرايات القديمة المرصوفة بالرخام والنقوش الجميلة والفسيفساء البديعة . وقال ان التجار الافرنج يتاجرون في مصر الحجارة الثمينة كاللؤلؤ والياقوت وخشب الابنوس والصندل والعاج وعطر البلسم والبلسان والبهارات التي ترد من الهند ويرسلونها الى اسواق اوربا عن طريق البندقية (فينيسيا) . وقال ايضاً أن المماليك الذين في خدمة السلطان بالقلعة والمنفرقين في البلاد يبلغ عددهم ستة آلاف مملوك . وقد تمكن هذا السائح الالماني بفطنته من مقابلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٣٢ مقابلة خصوصية . فسأله السلطان عن احوال ممالك الافرنج وقواتهم الحربية واحكامهم القضائية وتجارتهم وانتقد عوائدهم وعدم وفائهم بالعهود والذمم انتقاداً مرًّا . واوضح لهُ ايضاً انهُ ارسل بعض التجار عن نفقته الى اوربا وشحن معهم كثيراً من اصناف التجارة من حجارة ثمينة ومسك وبلسم وعنبر وعطر وبهارات وامرهم ان يطوفوا في اسواق البلاد ويدققوا في البحث سرًّا عن احوال ممالك اوربا . وعند رجوعهم ذكروا لهُ كل ما رأوهُ وعلموا بهِ من اختلافاتهم السياسية والدينية الخ . وقال هذا السائح ان عند السلطان الناصر اربع تراجمة يتكلمون جيداً باللغات الاوربية حتى ان السلطان نفسهُ يحسن التكلم باللغة الفرنسوية . واما كتب هذا السائح واسفاره فطبعت في ثلاثة مجلدات سنة ١٥٢٩ بالمانيا

وبعد عشر سنين حضر سائح المانى اخر من كولونيا يدعى الشفالير رودلف فرامتسبرج ولم تكن سياحتهُ التي كتبها بذات اهمية . ثم حضر سائح ايطالي يدعى نيكولو داكورمينزو وزار مصر وغزة وجبل سيناء وبلاد فلسطين وكتب عن دمياط ورشيد وتجارتها كتابات مطولة لا تخلو من الاهمية والفائدة

وفي سنة ١٣٨٤ حضر الى مصر ستة سياح وكلهم ايطاليون من فلورنسا الا ان اشهرهم فرسكو بالدي وجيورجيو غوشي ومسيكولي ورحلاتهم يعتمد عليها لاهميتها التاريخية والجغرافية . فوصف فرسكو بالدي ما عانوهُ مع رفقائه من المضايقة عند وصولهم الى الاسكندرية اذ لم يسمح لهم نائب السلطان ان ينزلوا الى البر فتداخل قنصل فرنسا في حمايتهم وكان يصحبهم بعض التجار البندقية ونزلوا فاخذت بضائعهم الى المكس وبعد الثمين دفعوا عنها عشرة بالمائة عيناً . ورسمت حقوق التجارية والقضية التي في مقابلتهم وجيوبهم واخذ منها اثنان في المائة . وقال ان قنصل فرنسا في الاسكندرية يحسن التكلم باللغة العربية وانهُ

(١) اطلق الافرنج في القرون الوسطى كلمة « الفندق » على بركانات تجارهم وبيوت قناصلهم ومسافراتهم ومنازل اصيافهم واجتماعاتهم وعلى بيوت تراجمة السلاطين لقبول الزوار من الافرنج

محبوب من الحاكم ومتزوج بفتاة قبطية . وان سبب تضييق المصريين على الافرنج ما فعلهُ ملك قبرص بطرس دي لوزينيان فانهُ هجم بمراكبهِ على ميناء الاسكندرية ونهب بعض المراكب المصرية . فغضب السلطان وامر بالقبض على كل الافرنج في الاسكندرية ودمياط وحجز ممتلكاتهم . ومن ذلك الوقت امر بتحصين الميناء والطوابي . وانهُ يبلغ تعداد اهالي الاسكندرية نحو ستين الفاً اكثرهم مسلمون وبينهم عدد ليس بقليل من اليهود والمسيحيين الوطنيين . وان نائب السلطان برقوق يقطن في قصر ثم وتحت امرهِ كثيرون من الجنود الترك والتتر والسوريين . ووصف مقابلة هؤلاء السياح والتجار والزوار للحاكم المذكور بواسطة فنصل فرنسا فقال :

« دخلنا البهو العظيم وهو مفروش بالسجاجيد الفاخرة فخلعنا احذيتنا كما أُمرنا ودخلنا حفاةً . وكان الحاكم متربعاً في صدر المكان على « طراحة » عالية حولها المساند وكلها من الدمقس المنسوج بالذهب وبين يديهِ جمع من الضباط والقواد والمماليك بالثياب المزركشة . وكانت جدران البهو مجللة بالكشمير الفاخر . فتقدمنا حفاة الى ان وصلنا الى طنفسة زرقاء بديعة الصنع على حد بضع خطوات من مجلس الحاكم فجثونا وقبلنا الارض ورفعنا أيدينا ووضعناها على شفاهنا وجباهنا . وكررنا ذلك ثلاث مرات الى ان قربنا من النائب فوقفنا خاشعين . فنظر الينا وبدأ يتفرس في كل واحدنا وسألنا عن احوال بلادنا وملوكنا ودقق في السؤال عن ملك فرنسا والبابا والرومية . وعند خروجنا من لدنهِ اطلق سبيلنا وسمح لنا بالتفرج على المدينة وزيارة كنائسها ومشاهدها » . ثم وصف الاسكندرية وصفاً مدققاً . ولما اراد السياح والتجار والزوار السفر الى مصر ارسلهم الحاكم صحبة احد قواده ولما وصلوا الى القاهرة سلمهم القائد الى ترجمان السلطان الاول وكان فلورنسي الاصل تدين بالاسلام وتقيد بخدمة السلطان برقوق

ثم وصف قصر السلطان ومماليكهُ واحوال المدينة وطرقها وشوارعها وجمالها وحميرها واسواقها وشوائد اهلها وصفاً مطولاً . وزعم ان السلطان برقوق كان نصرانياً رومياً واسلم[1] وقال ان بجانب قصر السلطان دكان جوهري مملآن من الجواهر الكريمة النادرة من لؤلؤ

(١) يظهر ان المقريزي من هذا القرابي فقال ان سيف الدين برقوق الملقب بالملك الظاهر كان ابوهُ من بلاد الشركس واسمهُ انس فوهبهُ فخدف ابنهُ وهو صغير وباع فاجر احضرهُ معهُ الى مصر فاشتراهُ الامير اينبا وجعلهُ بين مماليكهِ . ثم تقلبت عليهِ الاحوال الى ان ولاهُ الخليفة المتوكل على الله سلطنة مصر سنة ١٣٨٢ بلقب السلطان ابو سعيد الملك الظاهر

وزمرد وفيروز وياقوت احمر واصفر وان بعض تلك الجواهر ذات حجم كبير لا تقدر قيمتها بثمن . ووصف نقود مصر فقال ان الذهب منها تدعى دنانير والنقود الذهبية التي ضربت باسم الخليفة تدعى شريفية والفضية دراهم . واما النقود النحاس فتدعى فلوساً وكل المئتي عشر فلساً بدانق . ووصف كنيسة كان بناها الافرنج بين مصر القديمة والقاهرة استولى عليها الارمن بعد خروج الافرنج من مصر وقال ان قد دفنت فيها زوجة ليون السادس ملك قبرص حينما كان زوجها اسيراً عند سلطان مصر

واما سياحة سيكولي فليست بانل اهمية من تلك . فوصف السلطان برقوق بقوله « هو في الخامسة والاربعين من عمره صاحب همة شماء وحزم سديد وعزم شديد وعنده في القلعة ستة آلاف مملوك كلهم يلبسون ويأكلون على نفقته . يرى لابساً على الدوام ثياباً فاخرة زاهية ثمينة من الحرير الاصفر . ويبدلها في اليوم ثلاث مرات . واذا خلعها فلا يعود يلبسها ثانية بل يفرقها على مماليكه وقواده وبطانته . وعنده اربع زوجات وسراري كثيرات فلا تخرج الواحدة منهن الا وعلى اثرها كثير من الجواري والخصيان لحراستها . والسلطان كثير الشغف بالصيد والقنص يقصد في بعض الفصول مكاناً يدعى سرياقوس على بعد عشرين ميلاً من القاهرة عند دير للاقباط مستصحباً عدداً عظيماً من الفرسان والمماليك والخدم والحشم والقواد واصحاب الاعلام ما يبلغ عددهم نحو مائة الف وبينهم حفظة الاسلحة وحملة طيور الصيد والجوارح والبواشق . فتنصب له هناك الخيام والمضارب وكلها مفروشة بانفر الرياش والطنافس الا انه لا يعلم احد في اية خيمة ينام السلطان سوى خدمه الاخصاء . وهذه المضارب تشبه مدينة مستقلة على كثرتها وبينها خيام الوزراء والوف من خيام الباعة وتجار السلع »

وذكر انه في مدة سياحته بمصر جاءت السلطان هدايا كثيرة ثمينة من نائبه في دمشق مؤلفة من اكياس نقود ومصوغات وحلى ذهبية وجواهر ثمينة وخيول مظهمة مسرجة بالذهب وحلل فاخرة منسوجة بخيوط الذهب والفضة واسلحة دمشقية . وهذه الهدايا مرسلة من دمشق على مائة جمل البست الجوخ المطرز بالقصب قسمت خمسة اقسام كل قسم عشرين جملاً منها البست جوخاً بلون واحد بين ابيض واحمر وازرق واصفر واخضر . وكل جمل ارتدى ثوباً مطرزاً بالقصب من لون جل جمله . فعند وصول هذه الهدايا الى مصر كان السلطان في موسم صيده بسرياقوس فامر ان يؤتى بها الى هناك ولما وصلت وزع ما فيها من الاقمشة والنقود والذهب على قواده ومماليكه وابقى للصيد المفروشات والاسلحة . ووصف

سيكولي هذا السلطان بالعدل والحزم وان كل البلاد المصرية والسورية التي كانت خاضعة لحكمه وسطوته ، وطدة الامن والعدالة وهيبة السلطنة عامة الجميع حتى ان المسافر يسير ليلاً من بلد الى اخر ولو في القفار آمناً مطمئناً فلا يعترضهُ احد ولو كان مثقلاً بالمال

وبعد عشر سنين حضر الى مصر سائح فرنسوي يدعى البارون انجلور فزار الاديرة والجوامع وكان عند رجوعهِ من الصعيد ان اللصوص هجموا عليهِ وعلى رفقائهِ بالقرب من مصر القديمة فجرحوهُ جرحاً مميتاً وسلبوا امتعتهم ونقودهم

وفي القرن الخامس عشر كان في مقدمة السياح الافرنج جيابرت دي لانواي فكتب تقارير ورحلات في غاية الاهمية عن مصر وسورية وزار الاسكندرية ورشيداً ودمياط ووصفها وصفاً مطولاً

وفي سنة ١٤٣٦ زار مصر السائح الاسباني الشهير بترو تافور فرَّ اولاً بقبرص ونزل ضيفاً عند نسيبهِ الاميرال سوارس وهذا عرفهُ بانكرديتال شقيق جانوس ملك قبرص . وقر رأي هذا الملك ووزراؤهُ ان يبعثوا بالسائح المذكور سفيراً او رسولاً الى بيبرس سلطان مصر لكي يسمح لذلك ان يبيع الملح الذي يستخرجهُ من ملاحات قبرص في ثغور البلاد السورية مقابل خراج يدفعهُ في كل عام الى السلطنة المصرية . وان يأمر السلطان باستدعاء نائبهِ من قبرص الموكل بقبض الخراج السنوي فيرسلهُ رأساً في كل سنة الى الاسكندرية مع وفد مخصوص . فسافر تافور مزوداً بالكتب والاوامر في مركب ملوكي من نيقوسيا الى ثغر دمياط ولما وصل الى هناك أبلغ حاكمها مهمتهُ فارسل هذا رسولاً الى السلطان بيبرس بمصر واعلمهُ بوصول سفير من ملك قبرص فامر السلطان ان يؤذن لهُ في الحضور الى القاهرة ولما وصل الى ميناء بولاق استقبلهُ من قبل السلطان ترجمانهُ الاول وهو يهودي اشبيلي المنشإ انتحل الاسلام . ثم وصف هذا السائح او السفير مقابلتهُ للسلطان ونجاحهُ في مأموريتهِ

وفي اواخر القرن الخامس عشر حضر الى مصر سائحان المانيان وهما برنارد برندنبرج من كولونيا والثاني راهب دومينيكي من ألم اسمهُ فليكس فابر . والاثنان صحبا اميرين المانيين فالاول صحب الكونت سولم والثاني صحب البرنس جان دي والدنبرج فرنهر . وهذين السائحين تقارير واسفار مطولة عن مصر وسوريا وفلسطين في غاية الاهمية والدقة والامانة في النقل وكلها طبعت في المانيا على اثر رجوعهما الى بلادهما سنة ١٤٧٩ . وكان الامير الالماني جان فرنهر زار مع اتباعهِ وحاشيتهِ ورفاقهِ الزوار والتجار بلاد فلسطين ثم اجتازوا الصحراء الى جبل

سيناء ووصلوا الى مصر عن طريق السويس . ووصف السائح فليكس فابر الذي صحب هذا الامير ما لاقوهُ في طريقهم من المتاعب والمشقات واعتداء العربان . ولما وصلوا الى بلدة المطرية زاروا عين العذراء والشجرة وكان بالقرب من هناك قصر فخم وحديقة كبيرة للسلطان فيها انوع من شجر البلسم والبلسان . ووصف هذا السائح وغيرهُ من السياح القدماء عطر البلسم وقالوا انهُ من تجارة مصر المهمة يستخرج منهُ في كل سنة كمية عظيمة ترسل الى اسواق اوربا وتباع باثمان غالية . واكثر اشجار البلسم والبلسان في بساتين السلطان بالمطرية وعين شمس[1] ولما وصل الامير واتباعهُ الى هناك استقبلهم مملوك من قبل السلطان واوصلهم الى مصر وسلمهم الى ترجمان السلطان الاول وهو مشهور بين كتّاب اوربا ومؤرخيها بتانفربارديو وكان يهودياً اسبانياً ومن ارباب الدين . ولكي يتخلص من الاضطهاد في اسبانيا انتحل الديانة المسيحية ثم فر من بلادهِ وحضر الى مصر وانتحل الاسلام واتصل بسلاطين مصر فجعلوهُ ترجماناً وكان ذا نفوذ وسطوة وعلى جانب عظيم من الدهاء والمكر . وترجمان السلطان في ذلك العهد كان لهُ النفوذ الاول ومن اخص المقربين للسلطان واليهِ يعهد في مفاوضة القناصل واستقبال السفراء الاجانب وحراستهم والاهتمام بهم وكل من اتى الى مصر من السياح والزوار والتجار فكانوا ينزلون في فندقهِ وهو قصر عظيم من قصور السلاطين فكان هذا الترجمان يبتزُّ الاموال من التجار الافرنج والسياح . وفندقهُ يسع مئات من النزلاء والضيوف وكان كلما وصل الى مصر وفود السياح او الزوار والقناصل والسفراء يأمر السلطان ترجمانهُ هذا ان يتولى شؤونهم وان يكونوا تحت رعايتهِ وحراستهِ . وقد استعمل هذا الرجل كل وسائل الغش والخداع مع الامير واتباعهِ وصحبهِ من التجار والزوار الفرنسويين والايطاليين والبنادقة والالمان . ومرةً فاجأهم وهم يصلون ولم يدعهم يتممون ذبيحة القداس الاَّ بعد ان دفعوا لهُ مبلغاً طائلاً من المال . وبينما كانوا مرةً في الصلاة دخلت عليهم امرأة متشحة بالبياض وعلى وجهها قناع ابيض فذعروا خوفاً الاَّ انهم رأوها سجدت

(١) وقال السائح تنود سنة ١٥٥٠ ان سلطان مصر يستخرج في كل عام كمية كبيرة من عطر البلسم ويرسلهُ ضمن حقوق من فضة وذهب هدايا الى الترك العظيم (اي سلطان تركيا) والى ملك الحبشة والى شاه العجم والى بعض ملوك اوربا

وقال سائح آخر سنة ١٦٣٥ ان هذا البلسم لم يبقَ منهُ سوى بعض شجيرات في حديقة المطرية ولما حضر المسيو ماليت قنصل فرنسا الرابع عشر ملك فرنسا الى مصر سنة ١٦٩٠ قال ان هذا النوع انقرض من مصر كلها

امام المذبح وتبين لم بعد ذلك انها ابنة احد امراء الافرنج اسرت من قرصان المغرب واحضرت الى مصر وبيعت في سوق الجواري فاشتراها هذا الترجمان . ووجد السياح في سجن الفندق كثيرين من الاسرى الافرنج المقيدين بالسلاسل . وقد عهد السلطان الى هذا الترجمان في حراستهم والعناية بهم.

ثم وصف فليكس فابر السائح المذكور سراي هذا الترجمان فقال ان قاعاتها كلها ملأى بالذخائر والامتعة النفيسة والاسطحة الثمينة والافشة والمفروشات الفاخرة . وقد زار الامير الالماني مع اتباعه وضخم مدة اقامتهم بمصر فصل البندقية فاحتفى بهم وعانقهم فرحاً ثم دعاهم للطعام على مائدته . وأراهم في « فندقه » مكاناً سرياً فيه كأس من ذهب وبقونات وبدلات كهنوتية لاقامة القداس سرّاً ودعاهم لحضور متى شاؤا . ثم شكا كثيراً للامير الالماني من مواطنيه التجار الالمان الذين يأبون قبول اكياس البهارات من التجار البندقية ما لم تكن نظيفة منقاة مع انهم يرغمون على شرائها من التجار المصريين بلا تنقية كما وردت من الهند حتى انهم لا يسمحون لهم ان يفحصوا الاكياس وتنقد ما فيها [1]

ثم زار السياح المذكورون ابن ملك صقلية (فرديناند ملك نابولي) في قصره وكان ابوه هذا ارسله الى مصر في مهمة سياسية لدى سلطانها [2] ورأوا في حديقة قصره كثيراً من الحيوانات والطيور النادرة والغزلان

ثم زاروا قصر السلطان . قال السائح فابر « رأينا في قصر السلطان وعند ترجمانه ثلثمائة باردي عدداً عظيماً من المماليك الاجانب (اسرى الحرب) اتخذوا الاسلام فاعتقهم

---

(١) اهم تجارة البندقة في ذلك العهد مع مصر كانت في انواع البهار والأفاوية والتوابل من واردات الهند كالفلفل والقرفة والزنجبيل وحب الهان وجوز الطيب والقصد والقارنفل والكمون والكزبرة فكانوا يشترونها من التجار المصريين في مصر والاسكندرية او من وكلاء السلطان لانه كثيراً ما كان سلاطين مصر يتاجرون على حسابهم بهذه الاصناف ويرسلون مراكبهم الى بومباي وكنكوتا فتحضرها بالبضائع وياتون بها الى السويس وهناك يبيعها السلطان للتجار صفقة واحدة . واما التجار البندقة فكانوا يشترونها ويحضرونها الى البندقية وهناك تقام سوق عامة في بعض الفصول فيقبل كل التجار من انحاء اوربا الى سوق البندقية ويشترون البضائع الهندية والمصرية ويحملونها الى بلادهم (نقلاً عن سياحة فنود سنة ١٥١٤)

(٢) تزوج هذا الامير بابنة الدوق دي نورزيبان ملك قبرص السابق وكانت هذه الجزيرة من املاك مصر تدفع خراجاً سنوياً لسلاطينها فارسل ملك نابولي ابنه الامير الى سلطان مصر ليقره على مملكة قبرص عوضاً عن ملكها جانوس ووعده ان يدفع الى سلطنة مصر خراجاً مضاعفاً فلبث هذا الامير مدة طويلة في مصر وقبل ان السلطان جعله في قصره كاحد مماليكه (نقلاً عن السائح فنود)

السلاطين وجعلوهم مماليك لهم ولامرائهم ولقوادهم ومعظمهم من الصقليين والاراغونيين والاسبانيين وبينهم نبيل الماني من مدينة بادن . وبين هؤلاء المماليك عدد عظيم من المجر اسرهم سلطان الترك وارسلهم الى مصر وبيعوا في اسواقها » . وقال فابر ايضاً في رحلته «رغب السلطان الاميران الكونت سولم والبرنس دي والدنبرج ان يتفرجا على اسواق مصر فارسل السلطان بعض مماليكه لمرافقتهما فادخلونا الى سوق العبيد والجواري فلما رآنا التجار الخاصون ظنوا ان السلطان ارسلنا الى هذه السوق ليبيعنا فتهافتوا مقبلين نحونا يتفرجون علينا ثم عرضوا على المماليك حراسنا مبلغاً طائلاً من المال لمشترانا. ذلك انهم ادركوا من حسن بزتنا وهيئاتنا اننا من كبار قومنا في بلادنا وان اهلنا وذوينا اذا عرفوا اننا اسرى لا بد ان يرسلوا المبالغ العظيمة لفكاكنا وهذا ما جعل هؤلاء التجاسين يتهافتون على مشترانا طمعاً بالمال . ورغب الامير سولم ان يشتري غلاماً اسود فلم يقبل مالكه ان يبيعه لاعتقاده انه لا يجوز ان يقتني المسيحيون العبيد والجواري . ثم اشترى الاميران بعض الاقمشة الحريرية الفاخرة .

واجاز لنا السلطان التفرج على كنائس مصر القديمة فاصحبنا الترجمان ببعض المماليك الفرسان واستأجر لنا الحمير فاجتزنا اولاً شارعاً طويلاً في آخره بوابة عظيمة من الحديد ثم وصلنا الى سوق مزدحمة بالناس فسدت علينا الطريق فاضطر المماليك ان يبعدوا عنا الناس باسواطهم فهاج غضب الشعب علينا وبدأوا يرشقوننا بالحجارة والوحول ويقذفوننا بالشتائم والمماليك يذبون عنا بحمية وكان بعض الناس يهجمون علينا ويلقوننا من على الحمير الى الارض والبعض يجرونا من ثيابنا . وهجم احدهم على البرنس والدنبرج وقبض على لحيته وهو يقذفه بالشتائم واللطمات ولم يزل المماليك يدافعون عنا حتى خرجنا من المدينة

وكنا كلما التقينا باحد من الناس راكباً او فارساً كان يترجل ويقف احتراماً لمماليك السلطان وانويل لمن لا يظهر الاحترام او يبين مملوكاً ولو بالاشارة فجزاؤه الشنق بدون محاكمة عظيم

ولما وصلنا الى مصر القديمة تفرجنا على كنائسها واثارها . وبعد يومين ذهبنا لزيارة الجوامع وتفرجنا على المدرسة قايتباي التي شادها وبنى فيها جامعاً ودفن فيه . وفي شهر اكتوبر سنة ١٤٨٥ رجعنا الى الاسكندرية وسافرنا الى بلادنا

ديمتري نقولا